تحدي القناعة

عبد الرحمن زابو أحدُ العلماءِ المشهورين، والذين تركوا أثراً كبيراً في التاريخ الإسلامي العظيم. . ينقل عنه أحدُ أصدقائه ـ وكان ضابطاً ـ أنَّه سمع منه ذات مرة هذه الحادثة:

وقع أحدُ الضبَّاط أسيراً لدى الروس في الحرب العالمية الأولى، وكان هذا حول مدينة بيتليس الواقعة في كردستان العراق، وكان بديع الزمان في ذلك الوقت أسيراً في أحد المعتقلات، وفي أحد الأيام جاء أحد الضباط الروس وكان اسمه نيكولا نيكوفيتش لتفتيش الأسرى، وكان الجميعُ مرغمين على الوقوفِ أثناءَ تجوُّلِ الضابطِ الروسيِّ، لكن بديع الزمان لم ينهضْ من مكانِهِ.

لاحظَ الضابطُ الروسيُّ ذلك فعادَ مرةً أخرى، ومرَّ من أمامه ولكنَّ الأميرَ لم يحركْ ساكناً. . عاد الضابطُ مرةً

ثالثةً إلى المكان الذي يجلس فيه بديع الزمان، وخاطبه عن طريق المترجم:

ـ ألا تعرفُ مَنْ أنا؟

أجاب بديع الزمان المترجم:

ـ طبعاً أعرفك.. خال القيصر نيكولا نيكوفيتش، القائد الأعلى لجبهةِ القفقاس.

ـ لماذا هذا التَّصرُّفُ منكَ وأنتَ تعرفُ مَنْ أنا؟

ـ كلا أيها القائد؛ ليس الأمر كما تظنُّ، ولكنني أتصرَّفُ وفْقَ ديني ومعتقدي.

ـ وما هذا الذي تقول.. عمَّ تتحدث؟!

ـ أيها القائد! أنا رجل مسلم، وقلبي ممتلئٌ بالإيمان بالله، والشخصُ المؤمن أفضلُ من الشخصِ غيرِ المؤمن، ولو قمْتُ أنا لشخصٍ غيرِ مؤمنٍ عندها كأنَّني أهنْتُ كلَّ مقدَّساتي ومعتقداتي، لذلك لم أقمْ لك.

ـ هذا يعني أنَّني شخصٌ غيرُ مؤمنٍ بنظرِكَ، وأنت بهذا التَّصنيفِ تهينُ القيصر، وسأحوِّلك إلى المحكمة العسكرية.

أقيمت محكمةٌ عسكريةٌ وقررتْ أنْ يعتذرَ بديعُ الزمان من القائد الروسي، ولكنَّ جوابَ بديع الزمان كان الآتي:

ـ في الحقيقة.. أنا أريد الذهابَ إلى الآخرة، وأنْ أكون إلى جوارِ رسولِ الله ﷺ، ولكنْ يلزمني جوازُ سفر، ولا أستطيعُ أبداً أنْ أفعلَ شيئاً خوفاً على إيماني وعقيدتي.

صدر قرارُ المحكمة بإعدام بديعِ الزمان رمياً بالرصاص، وسمحوا له بخمسِ دقائق يتوضَّأُ ويصلي فيها.

وبينما هو يصلي آخرَ ركعةٍ في حياته جاء القائد الروسي وقال له:

ـ أُبلِّغُكَ اعتذاري.. لقد فهمتُ الآن أنَّك لم تتصرفْ بهذا الشكل لأنَّك تحتقرني، أو تقلِّلُ من احترامي، ولكنْ من أجلِ دينكَ وإيمانكَ ومعتقداتك.. فأنا أشعر بالتقديرِ الكبيرِ والاحترامِ الشديد لتعلُّقِكَ بدينك، أنا آسف لأنَّني أزعجتُكَ، وأعتذرُ مرةً ثانية.

الإيمان نورٌ وقوة.. وإذا كان الإنسانُ صاحبَ عقيدةٍ

وإيمانٍ قويٍّ صادق، يستطيع عندها أنْ يتحدَّى الكون كلَّه.

الموتُ ليس النهايةَ أو العدمَ؛ لكنَّه في الحقيقة بابُ الوصولِ للقاء الحبيب.. الله.